الشافعي واضع علم اصول الفقه

للاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب

— ٣ —

وكان الشافعي في اول أمره يطلب الشعر وايام الناس والأدب . قال الشافعي : « وخرجت من مكة ، يعني بعد ان بلغ قال : فلزمت هذيلا بالبادية أتعلم كلامها وآخذ اللغة وكانت أفصح العرب(١) » ابن حجر ص ٥٠

(١) ويقول الرازي : اعلم ان المتقدمين من أئمة اللغة والمتأخرين منهم اعترفوا للشافعي بالتقدم في علم اللغة واقروا له بكمال الفصاحة . نقل عن الاصمعي انه قال : قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له : (محمد ابن ادريس الشافعي :)

وحكى ابن دريد عن ابي حاتم السجستاني عن الاصمعي انه قال : قرأت شعر الشنفرى على محمد بن ادريس ثم نقل الرازي شهادة الجاحظ وثعلب وابو منصور الازهري وابي سليمان الخطابي وتطويه الزمخشري للشافعي وقال بعد ان نقل كلام الزمخشري في الكشاف الذي يرجح به رأي الشافعي في تفسير بعض الآيات : مانصه :

هذا كلام صاحب الكشاف نقله بلفظه وهو صريح بان نظر الشافعي (رض) في هذه الآية أتم ووقوفه على العربية أكمل مع ان صاحب الكشاف كان على مذهب ابي حنيفة ، فكانت شهادته للشافعي بالتقدم في هذا المقام دليلا على ان الامر كذلك. الرازي . ص ١٥٣ الى ١٥٦

وفي معجم الادباء لياقوت نقلا عن الآبري ، قال : وسمعت ابن هشام يقول : الشافعي كلامه لغة يحتج به . وحدثت عن محمد بن الحسن الزعفراني قال : كان قوم من أهل العربية يختلفون الى مجلس الشافعي معنا ويجلسون ناحية يقال فقلت لرجل من رؤسائهم : انكم لا تتعاطون العلم فلم تختلفون معنا ؟ قالوا : نسمع لغة الشافعي . . . .

وحدث ابن خزيمة قال : سمعت يونس بن عبد الاعلى يقول : كان الشافعي اذا أخذ في العربية قلت هو بهذا أعلم ، واذا تكلم في الشعر وأنشده قلت : هو بهذا أعلم ، واذا تكلم في الفقه قلت هو بهذا أعلم . ج ٦ ص ٢٧٩ و ٣٨٠

وذكر البغدادي في تاريخ بغداد عن أبي الوليد بن أبي الجارود أنه كان يقول : ما رأيت أحداً الا وكتبه أكثر من مشاهدته الا الشافعي ، فان لسانه كان أكثر من كتابته . ج ٢ ص ٦٧

وقد رووا للشافعي أشعاراً يكفي في الحكم عليها أن نذكر ما ذكره الرازي من أن الشافعي كان يقول :

لا يكاد يجود شعر القرشيين لان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ولا يكاد يجود خط القرشي لان النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يكتب بدليل قوله تعالى : « ولا تخطه بيمينك » ص ١٩٥

على أنه يقع للشافعي فيما يروى له من الشعر ما يكون جيداً كقوله :

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

وقوله :

ما طار طير وارتفع ... الا كما طار وقع

وقوله :

لا تأس في الدنيا على فائت ... وعندك الاسلام والعافية

وقوله :

وأحسن خلق الله بالهم امرؤ ... ذو همة يعلى بعيش مضيق

وقوله :

أكل الغراب بقوة جيف القلا ... وجبن الذباب الشهد وهو ضعيف

ثم توجه الشافعي الى الفقه يدرسه وقد اختلفت الروايات في سبب توجهه الى الفقه وتكاد ترجع كلها الى نصح الناصحين له ان يصرف جهده وذكاءه في علم تكمل به سيادته من غير خطر على دينه ولم يكن يومئذ الا الفقه سبيلا الى ذلك

ويعبر عن روح الوقت من تلك الناحية :

ما رواه الخطيب البغدادي في تاريخه عن أبي يوسف قال : قال ابو حنيفة : لما أردت طلب العلم جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها فقيل لي : تعلم القرآن ، فقلت : اذا تعلمت القرآن وحفظته فما يكون آخره ؟ قالوا : تجلس في المسجد ويقرأ عليك الصبيان والاحداث ثم لا تأمن أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو يساويك في الحفظ فتذهب ريستك ، قلت : فان سمعت الحديث وكتبته حتى لم يكن في الدنيا احفظ مني ؟ قالوا : اذا كبرت وضعفت حدثت واجتمع عليك الأحداث والصبيان ثم لم تأمن ان تغلط فيرموك بالكذب فيصير عارا عليك في عقبك ، فقلت : لا حاجة لي في هذا ، ثم قلت : اتعلم النحو ، فقلت : اذا تعلمت النحو والعربية ما يكون آخر أمري ؟ قالوا تقعد معلما وا كثر رزقك دينارات الى الثلاثة ، فقلت وهذا لا عاقبة له ، قلت : فان نظرت في الشعر فلم يكن أحد أشعر مني ، ما يكون من أمري ؟ قالوا : تمدح هذا فيهب لك ويحملك على دابة أو يخلع عليك خلعة ، وأن حرمك هجوته فصرت تقذف المحصنات ، فقلت : لا حاجة لي في هذا . قلت : فأن نظرت في الكلام فما يكون آخره ؟ قالوا : لا يسلم من نظر في الكلام من شنعات الكلام فيرمى بالزندقة ، فأما أن يؤخذ فيقتل ، وأما أن يسلم فيكون مذموما ، قلت : فأن تعلمت الفقه ؟ قالوا : تسأل وتفتي الناس وتطلب للقضاء وإن كنت شابا ، قلت : ليس في العلوم شيء انفع من هذا ، فلزمت الفقه وتعلمته ، — تبيض الصحيفة — ص ١١ و ١٢

وتفقه الشافعي أول أمره على « مسلم بن خالد الزنجي » مفتي مكة سنة ١٨٠ هـ ٧٩٦ م مولى بني مخزوم ، وقد اختلف النقاد في

أمر مسلم فقيل : ثقة وقيل ضعيف وقيل : ليس بشيء ، وقال البخاري : منكر الحديث

ونقل : إنه كان يرى القدر ولعل هذا هو سر تضعيفه

ويقولون: أن مسلم بن خالد الزنجي قال للشافعي: أفت يا أبا عبدالله فقد آن لك أن تفتي ، وكان الشافعي حينئذ دون عشرين سنة

وأخذ الشافعي في مكة عن : سفيان بن عيينة الهلالي ، المتوفى سنة ١٩٨ هـ ٨١٣ م أحد الثقاة الأعلام ، روى عن بعضهم : أنه اختلط سنة ١٩٧ هـ ٨١٢ م

ثم رحل الشافعي الى المدينة ليطلب العلم عن ، مالك بن انس ، فقرأ الموطأ على مالك بعد أن حفظه عن ظهر قلب في مدة يسيرة وأقام بالمدينة الى أن توفي ، مالك ، سنة ١٧٩ هـ ٧٩٥ م

وخبر رحلته الى مالك مروي على وجوه مختلفة تتفق كلها في أن الشافعي كان فقيرا لا يملك نفقة السفر على فرط شوقه الى الأخذ عن أمام دار الهجرة

ثم يسر الله له أسباب الرحلة ، وأحسن مالك لقاءه لما تفرس من نجابته وفضله

وتلقى الشافعي في المدينة عن غير مالك كابراهيم بن أبي يحيى الذي يقول الرازي : اتفقوا على انه كان معتزليا

وخرج الشافعي الى اليمن بعد موت مالك

، قال الشافعي : لما مات ، مالك ، كنت فقيرا ، فاتفق ان والي اليمن قدم المدينة فكلمه بعض القرشيين في ان أصحبه فذهبت معه واستعملني في أعمال كثيرة وحمدت فيها والناس أثنوا علي ، الرازي ص ١٨

وكادت الولاية تشغل الشافعي عن العلم حتى نبهه بعض شيوخه فانتبه

قال الشافعي : كنت على عمل باليمن واجتهدت في الخير والبعد عن الشر ، ثم قدمت الى المدينة فلقيت ابن ابي يحيى و كنت أجالسه ، فقال لي : تجالسونا وتسمعون منا و فأذا ظهر لأحدكم شيء دخل فيه

ثم لقيت ابن عيينة فقال : قد بلغنا ولايتك فما أحسن ما انتشر عنك ، وأديت كل الذي لله عليك ولا تعد

قال الشافعي رضي الله عنه : موعظة ابن عيينة انفع ما سمع ابن ابي يحيى - الرازي ص ٢٠

وقد أخذ الشافعي عن جماعة من أهل اليمن منهم مطرف بن مازن الصنعاني المتوفى سنة ١٩١ هـ — ٨٠٦ م

وقد كذبه يحيى بن معين ، وقال النسائي ليس بثقة ، وقال غيره كان قاضي صنعاء ، وكان رجلا صالحا و عمرو بن أبي سلمة المتوفى سنه ٢١٤ هـ — ٨٢٩ م وهو صاحب الأوزاعي

ويقولون ان الشافعي جمع كتب الفراسة من اليمن واشتغل بها حتى مهر فيها

ارتفع شأن الشافعي في اليمن ، (ثم أن الحساد سعوا الى هارون الرشيد ، وكان باليمن واحد من قواده فكتب اليه يخونه من العلويين وذكر في كتابه ان معه رجلا يقال له ، محمد بن ادريس الشافعي يجمع بسببه ما لا يقدر القفال عليه بسيف ، فأن أردت ان تبقي الحجاز عليك فاحملهم اليك

فبعث الرشيد الى اليمن وحملوا الشافعي مع العلوية الى العراق) الرازي ص ١٨

وتلك هي المحنة التي اقتضت دخول الشافعي العراق ، وفي حديث هذه المحنة اختلاف كبير وقد يكون اسلم هذه الروايات من الحشو وأدناها الى الأعتدال والقصد ما رواه ابن عبد البر في كتاب ، الأنتقاء ، قال :

حمل الشافعي من الحجاز مع قوم من العلوية تسعة وهو العاشر الى بغداد وكان الرشيد بالرقة ، فحملوا من بغداد اليه وأدخلوا عليه ومعه قاضيه ، محمد بن الحسن الشيباني ، وكان صديقا للشافعي وأحد الذين جالسوه في العلم وأخذوا عنه (١) فلما بلغه أن الشافعي في القوم الذين أخذوا من قريش بالحجاز واتهموا بالطعن على الرشيد والسعي عليه ، اغتم لذلك غما شديدا : وراعى وقت دخولهم على الرشيد قال : فلما أدخلوا على الرشيد سألهم وأمر بضرب أعناقهم: فضربت أعناقهم الى أن بقي حدث علوي من أهل المدينة . وأنا ، فقال للعلوي : أأنت الخارج علينا والزاعم أني لا أصلح للخلافة ؟ فقال العلوي : أن أدعى ذلك أو أقوله قال : فأمر بضرب عنقه ، فقال العلوي : أن كان لابد من قتلي فأنظرني أكتب الى أمي بالمدينة فهي عجوز لم تعلم بخبري : فأمر بقتله فقتل

ثم قدمت و ، محمد بن الحسن ، جالس معه فقال لي مثل مقالي للفتى فقلت : يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي وأنما أدخلت في القوم بغيا علي : وأنما أنا رجل من بني المطلب بن عبد مناف بن قصي ولي مع ذلك حظ من العلم والفقه والقاضي يعرف ذلك . وأنا محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان ابن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن

(١) لعل في العبارة تحريفا فان المعروف ان الشافعي هو الذي اخذ عن محمد

المطلب بن عبد مناف . قال لي أنت محمد بن ادريس ؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين قال ما ذكرك لي محمد بن الحسن ثم عطف على محمد بن الحسن فقال : يا محمد ما يقول هذا هو كما تقوله ؟ قال : بل وله من العلم محل كبير . وليس الذي رفع عليه من شأنه . قال : فعد اليك حتى أنظر في أمره . فاحتدى محمد وكان سبب خلاصي له اراد الله عز وجل به ص — ٩٧ . ٩٨

ويقول ابن حجر في كتاب « توالي التأسيس » ص — ٧١ — (وأما الرحلة المنسوبة الى الشافعي المروية من طريق عبد الله بن محمد البلوي فقد أخرجه « الآجري » و « البيهقي » وغيرهما مطولة ومختصرة وساقه « الفخر الرازي » في مناقب الشافعي بغير اسناد معتمداً عليها وهي مكذوبة وغالب ما فيها موضوع، وبعضها ملفق من روايات ملفقة موأوضح ما فيها من الكذب . قوله فيه : أن أبا يوسف ومحمد بن الحسن حرضا الرشيد على قتل الشافعي . وهذا باطل من وجهين : أحدهما — أن أبا يوسف لما دخل الشافعي بغداد كان مات ولم يجتمع به الشافعي

والثاني — أنهما كانا أتقى لله من أن يسعيا في قتل رجل مسلم لا سيما وقد اشتهر بالعلم ، وليس له اليهما ذنب الا الحسد على ما آتاه الله من العلم . هذا ما لا يظن بهما وان منصبهما وجلالتهما ، وما اشتهر من دينهما ليصد عن ذلك

والذي تحرر لنا بالطرق الصحيحة : أن قدوم الشافعي بغداد أول ما قدم كان سنة ١٨٤ هـ — ٨٠٠ م . وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنتين ، وأنه لقي محمد بن الحسن في تلك القدمة ، وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز وأخذ عنه ولازمه

وممن أخذ عنهم الشافعي في العراق « وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي أبو سفيان الكوفي الحافظ » المتوفى سنة ١٩٠ هـ ٨٠٥—٨٠٦ م و « حماد بن أسامة الهاشمي الكوفي » المتوفى سنة ٢١٠ هـ — ٨٢٥ م ، و « عبد الوهاب بن عبد المجيد البصري » المتوفى سنة ١٩٤ هـ ٨٠٩ — ٨١٠ م . وقد قرأ الشافعي كتب « محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩ هـ ٨٠٤—٨٠٥ م ولازمه وأخذ عنه .

ولم نر فيما بين أيدينا من تراجم الشافعي ذكر مدة مقامه في بغداد في هذه القدمة .

وقدم الشافعي بعد ذلك الى بغداد سنه ١٩٥ هـ ٨١٠ — ٨١١ م فأقام سنتين واشتهرت جلالة الشافعي رحمه الله في العراق وسار ذكره في الآفاق وأذعن بفضله الموافقون والمخالفون .....

وعكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار من الأئمة والاحبار من أهل الحديث والفقه وغيرهما . ورجع كثيرون منهم عن مذاهب كانوا عليها الى مذهبه وتمسكوا بطريقته كأبي ثور وحلائق لا يحصون ..... ووصف في العراق كتابه القديم ويسمى « كتاب الحجة » ويرويه عنه أربعة من جلة أصحابه وهم : أحمد بن حنبل ، وأبو ثور ، والزعفراني ، والكرابيسي)

« شرح المهذب للنووي » جـ ١ ص ٩

ثم خرج الشافعي الى مكة وعاد الى بغداد في سنة ١٩٨ هـ ٨١٣ — ٨١٤ م وأقام بها أشهرا ، ثم انه خرج الى مصر في هذه السنة كما في معجم الادباء ويقول ياقوت في موضع آخر : ويقال : ان الشافعي رضي الله عنه قدم الى مصر سنة ١٩٩ هـ - ٨١٤-٨١٥ م في أول خلافة المأمون وكان سبب قدومه الى مصر ان العباس ابن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن العباس استصحبه فصحبه وكان العباس هذا خليفة لأبيه على مصر » جـ ٦ ص ٢٩٤ (١)

وفي شرح المهذب : « وقال الربيع قدم الشافعي (مصر) سنة

---

(١) وليس معنى ذلك أن الشافعي انما خرج الى مصر لمجرد الرغبة في مصاحبة الوالي فقد كان يتشوق الى مصر من قبل ورووا له في ذلك شعراً

أرى النفس قد أصبحت تتوق الى مصر
ومن دونها حوب المفازة والوعر
ووالله ما أدري أتحقق والذي
أساق اليها أم أساق الى قبري ؟

وروى هذا الشعر أبو بكر أحمد بن محمد الهذلي المعروف بابن الفقيه في كتاب البلدان المؤلف نحو سنة ٢٩٠ هـ منسوباً الى أبي نواس فيكون الشافعي قد تمثل به

وقد يفهم سبب خروج الشافعي الى مصر مما ذكره بن البزاز الكردري في مناقب الامام الاعظم أبي حنيفة على ما فيه من التحامل البين : عن الخارود بن معاوية قال : كان الشافعي عندي بالعراق يصنف الكتب وأصحاب محمد يكسرون عليه أقاويله بالحجج ويصنفون أقواله ويقرؤنها عليه وأصحاب الحديث أيضاً لا يلتفتون الى قوله ويرمونه بالاعتزال فلما لم يتم له بالعراق وسوق خرج الى مصر ولم يكن بها فقيه معلوم فقسام بها سوقه » جـ ٢ ص ١٥٣

واذا كان الشافعي قد خرج الى مصر يلتمس نشر مذهبه فهو انما أراد أن يلتمس لآرائه ميداناً جديداً بعد أن أدرك النصر في الحجاز والعراق

وقال الربيع سألني الشافعي عن أهل مصر فقلت هم فرقتان فرقة مالك الى قول مالك وناصلت عليه وفرقة مالك الى قول أبي حنيفة وناضلت عليه ، فقال أرجو أن أقدم مصر ان شاء الله فأتيهم بشيء أشغلهم عن القولين جميعاً ، قال الربيع ففعل ذلك والله حين دخل مصر » ابن حجر ص ٧٧

مائتين ولعله قدم في آخر سنة تسع وتسعين بين الروايتين

وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر وسائر ذكره في البلدان وقصده الناس من الشام والعراق واليمن وسائر النواحي للأخذ عنه وسماع كتبه الجديدة ، ص ٩

وفي ابن خلكان : ، ثم عاد الى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فاقام بها شهراً ثم خرج الى مصر وكان وصوله اليها سنة تسع وتسعين ومائة وقيل إحدى ومائتين ،

وأقام الشافعي بمصر الى أن مات سنة ٢٠٤ هـ و ٨١٩ - ٨٢٠ م (١) كان في آخر عمره عليلا شديد العلة من البواسير حتى قالوا : أن صدره أصبح ضيقا ، وأنه كان يقول أني لآتي الخلاء وأنا أعرف نفسي ترك الحيض

وفي كتاب ، توالي التأسيس ، لابن حجر : (قلت : قد اشتهر ان سبب موت الشافعي : ان فيان بن ابي السمح المالكي المصري وقعت بينه وبين الشافعي مناظرة فبدرت من فيان بادرة فرفعت الى أمير مصر فطلبه وعزره فحقد ذلك فلقي الشافعي ليلا فضربه بمفتاح حديد فشجه فتمرض الشافعي منها الى ان مات ولم أر ذلك من وجه يعتمد) ص ٨٦ .

لم تقتل الشافعي شجة ، فيان ، المزعومة أنما قتل الشافعي مابذله من جهد عنيف في السنين الأربع التي أقامها بمصر مابين تأليف وتدريس ومناظرة وسعي في بث مذهبه ومدافعة كيد خصومه ، هذا الى مرضه المنهك ، وقد كان في ذلك العهد مصابا بنزيف من البواسير

قال الربيع تلميذه : أقام الشافعي ههنا أربع سنين فأملى لنا وخمسمائة ورقة ، وخرج كتاب ، الام ، ألفي ورقة وكتاب ، السنن ، وأشياء كثيرة كلها في مدة أربع سنين ، وكان عليلا شديد العلة ... ، ابن حجر ص ٨٣ ، وكان يلازم الاشتغال بالتدريس والافادة في جامع عمرو ..

وكان يجلس في حلقته اذا صلى الصبح فيجيئه اهل القرآن فيسألونه ، فاذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره ، فاذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة : فاذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء اهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يقرب انتصاف النهار ثم ينصرف الى منزله ، ابن حجر ص ٦٢

واخرج أبو نعيم من طريق ابن حسين المصري سمعت طبيبا مصريا يقول : ورد الشافعي مصر فذاكرني بالطب حتى ظننت أنه لا يحسن غيره ، فقلت له اقرأ عليك شيئا من كتاب أقراط فأشار الى الجامع فقال لي هؤلاء لا يتركونني . ابن حجر ص ٦٦ .

وقد يكون الشافعي درس الطب بعمق درسه من العلوم في العراق حينما جاءها أول مرة

وقد يكون درس علوم التنجيم ايضا هناك ، وانهم ذكروا ان الشافعي اشتغل بعلوم التنجيم : وكل ذلك يدل على ما كان من شغف للامام بالعلم كله

وقد يكون هذا الجلوس المتوالي في الجامع من أسباب ماأصيب به الامام من المرض .

وذكر الاستاذ مصطفى منير ادهم في رسالته ورحلة الامام الشافعي الى مصر ، ان أهل الامام ذهبوا الى الوالي في صباح الليلة التي توفي فيها ، وكان الوالي هو محمد بن السري بن الحكم ، وطلبوا اليه الحضور لتغسيل الامام كما أوصى ، فقال لهم الوالي : هل ترك الامام دينا ؟ قالوا نعم ، فامر الوالي بسداد ذلك الدين كله ، ثم نظر اليهم وقال لهم هذا معنى تغسيلي له ص ٤١

وان صحت هذه القصة التي لم يذكر راويها (١) لها اسنادا فهي تدل على أن الشافعي خرج من الدنيا فقيراً كما دخلها فقيراً

ولسنا نشك في أن الشافعي مات فقيراً ، لكنا نشك في امر استدانته ، فقد روى ابن حجر في ، توالي التأسيس ، عن ابن أبي حاتم عن أبيه عن عمرو بن سواد السرحي قال : قال لي الشافعي أفلست ثلاث مرات فكنت أبيع قليلي وكثيري حتى حلي ابنتي وزوجتي ولم أستدن قط ص ٦٧

وتزوج الشافعي (حميدة) بنت نافع بن عنبسة بن عمرو بن عثمان ابن عفان فولدت له (أبا عثمان محمدا) وكان قاضيا لمدينة حلب (وفاطمة) (وزينب)

---

(١) وقد عثرت على هذه الرواية في كتاب (تاريخ مصر) المشهور (بدائع الزهور في وقائع الدهور) ولفظه : قيل : لما مرض الامام الشافعي أوصى بأن لا يغسله الا أمير البلد ، فلما مات حضر محمد بن السري أمير البلد فقيل له : ان الامام أوصى بأن لا يغسله الا أنت ، فقال : هل توفي الامام وعليه دين ؟ فقيل : نعم فحسبوا ما عليه من الدين فاذا هو سبعون الف درهم فقضاها عنه محمد بن السري وقال : هذا غسل اياه وانما كفى عن الدين الذي عليه لاقضيه عنه جـ ٣ - ص - ٣٣

(١) في كتاب التوفيقات الالهامية لمحمد مختار باشا

في ٩ من يناير سنة ٨٢٠ كانت وفاة الامام محمد بن ادريس الملقب بالشافعي - ض - وهو صاحب المذهب الشافعي ولم يبلغ من العمر أكثر من ٥٤ سنة ودفن بالقرافة الصغرى ص ١٠٢ .